قصيدة النثر في الشعر العربي المعاصر.

- المحاضرة الأولى: قصيدة النثر وبدايات التأسيس.

تعهَّدت روح العصر وحركة التأثر والتأثير في الآداب والفنون قصيدة النثر بالرعاية والعناية لتسلمها إلى مواهب كبرى تأخذ على عاتقها الارتفاع بها، ولاسيما على يد الشعراء الرمزيين الفرنسيين، وعلى رأسهم الشاعر (شارل بودلير) في مجموعته (قصائد نثرية قصيرة)، (Poetics Poems Prose)، حيث يعتقد مؤرّخو الأدب أن بودلير هو رائد قصيدة النّثر، وأوّل من استعمل مصطلح قصيدة النثر، من خلال أولى قصائده النّثرية (قصائد ليلية) لعام 1857م، غير أنّ المتتبّع لتاريخ هذا الجنس الشّعري المبتكر، يدرك أنّ شاعرا آخر غير بودلير هو الذي أسّس المعالم الأولى لقصيدة النثر؛ إنّه الشّاعر الفرنسي لويس برتران (Louis Bertrand)، الذي كتب مجموعة شعرية واحدة بعنوان "جاسبير اللّيل" (Gaspard de la nuit)، وكانت هذه المجموعة هي البداية التي انطلقت منها قصيدة النّثر الفرنسية ، ثم أقدم بودلير، بعد ذلك، على محاكاة "برتران" ابتداء من ديوانه الأوّل (أزهار الشّر) 1857م، ثم مجموعة قصائد أكثر جرأة في التّشكيل والرّؤيا هي مجموعته الموسومة بسُأم باريس، أو سوداوية باريس (Le Spleen de Paris) .

ويعتبر كل من: رامبو، وبودلير، رواد قصيدة النثر، ويقترن بهما شاعر فرنسي ثالث، هو (ملارميه) الذي خطى بقصيدة النثر خطوات عريقة، فجعل من القصيدة حلقة وصل بين الشاعر والقارئ، حتى قال: **" إنَّ معنى أبياتي هو ذلك الذي يعطيه لها القارئ."** وظهور هؤلاء الشعراء في فرنسا يؤكد أنَّ قصيدة النثر فرنسيَّة بامتياز، ويشهد على ذلك أنَّ التقاليد التربوية الشعريَّة الفرنسية تصر على الفصل الحاسم بين الشعر والنثر، وذلك خلاف التقاليد الشعرية في سواها من بلدان أوربا.

أما في أمريكا، فقد تبوّأ الشاعر (والت ويتمان) الصدارة بين الشعراء الذين تصدوا لكتابة القصائد النثرية، ولاسيما في ديوانه (أوراق العشب) الذي ظهرت طبعته الأولى عام 1885 م.

وعليه فإنَّ قصيدة النثر قصيدة أوربية إجمالا، ونجد بذورها عند شعراء ألمان، ثمّ يطورها الفرنسيون، والأمريكان، وجوبهت بغير قليل من المعارضة خارج فرنسا بخاصة، وهذا ديدن كل حركة جديدة، لكنها لم تلبث أن حصلت على جواز الإقامة في مملكة الشعر، بل أنَّ التحمس لها

يتصاعد يومًا بعد آخر. من طرف شعراء سعوا إلى إعادة النظر في ذلك المفهوم الضيق للقصيدة، حيث أصبح الشاعر «**يرفض وسائل الرقي الآلية جدا للشعر الموزون المقفى، ويطلب "مفاتن أكثر دقة من الكلمة نفسها، ومن التوافقات السرية بين المعنى والصوت، وبين الفكرة والإيقاع، وبين التجربة الشعرية واللغة التي تترجمها**»، وكنتيجة لذلك ولدت قصيدة النثر ثمرة تمرد على «**قوانين علم العروض، وأحيانا على القواعد المعتادة للغة**".

أمّا قصيدة النثر في الأدب العربي فقد ولدت في النصف الثاني من القرن العشرين، بتأثير من كتاب سوزان بيرنار (Suzanne Bernard): (قصيدة النثر من بودلير إلى أيامنا) ، (Le poème en pose de Baudelaire jusqu'à nos jours)، سنة (1959) –وهو رسالتها للدكتوراه-الذي مثّل لحظة الانحراف الكبرى في معنى الشعريّة العربيّة، وذلك لحجم التأثير الذي أحدثه في الذائقة العربيّة بإجهازه على البناء الشعريّ التقليديّ الذي طالما تحطّمت على دعاماته الراسخة معاول محاولات التغيير، عبر ما يزيد على ألف سنة مضت.

لقد كان لصدور كتاب سورن برنار. إذا، الأثر الكبير في تحول رواد الحداثة نحو هذا النمط التشكيلي الجديد، وقد ركزت الناقدة في هذا الكتاب على استحداث مفهوم الشعر انطلاقا من نماذج قصيدة النثر الفرنسية مؤكدة رفضها للتصوّر الضّيق لمفهوم الشعرية التي يحصرها وفقط في الوزن و القافية، إذ ترى أن «**الشعر يرتبط بحكم أصوله بالموسيقى ومن ثم بفكرة الوزن، ولكن ايقاع الجملة، وعلاقات النغمة بالمعاني، والقوة المثيرة للكلمات، والحد الغامض للإيحاء الذي يضاف لمحتواها الواضح المحض، والصور إنما هي مستقلة عن الشكل المنظوم شعرا**»، أي أن شعرية القصيدة لا تكمن فقط في تقيدها بالمبادئ العروضية، بل وتكمن أيضا في عناصر أخرى كإيقاع الجملة، والقوة الإيحائية للكلام، والصور الشعرية، وهي العناصر التي أهملها المفهوم التقليدي للشعر لصالح القافية والوزن.

لقد شكّلت الحماسة للنتاج الغربي، والهوس بالمنجز الحضاري للغرب أهم العوامل المساهمة في نشأة قصيدة النثر العربية. وكان "**يوسف، أدونيس، خليل حاوي، نذير عظمة، هؤلاء هم الشعراء الأساسيون الذين شكلوا نواة تجمع "شعر" في البداية، والذين سينضم إليهم عدد من النقاد الشبان: كأسعد رزوق، انسي الحاج وخالدة سعيد.**" واستطاعت مجلتهم (شعر) استقطاب فؤاد رفقة، ومحمد الماغوط، ومنير بشور، وشوقي أبي شقرا، وعصام محفوظ، وهم من الشعراء الشباب آنذاك.

ومنذ صدور العدد الأول لمجلة (شعر) اللبنانية أخذت تتعهد هذا اللون الإبداعي الجديد بالرعاية والتبشير سواء عن طريق طبع مجاميع قصائد النثر والتبشير بها، أو عن طريق ترجمة أعمال كثير من الشعراء الذين كتبوا القصائد النثرية مثل: بودلير، ورامبو، وملارامیه، ولوتريامون، أو عن طريق تشجيع الناشئين على كتابة قصيدة النثر.

ولأمر ما لم تكن مصر شديدة الحماسة لهذا الاتجاه الشعري الجديد في أول الأمر – على الأقل – على نطاق الإبداع الشعري، أما على النطاق التنظيري فإننا نجد (غالي شكري) شديد الحماسة لقصيدة النثر، ويشهد على ذلك كتابه (شعرنا الحديث. إلى أين؟).

أما في العراق فقد كان المناخ مهيئًا – إلى حد ما – لاستقبال قصيدة النثر، ولاسيما بعد دعوات بعض النقاد والأدباء إلى الانقلاب على الموروث الشعري القديم كدعوة الزهاوي إلى الشعر (المرسل)، وحسين مردان في ديوانه (الربيع والجوع) الذي جاء على غلافه أنَّه من النثر المركَّز ، ولعلَّ آخر الدعوات هي الأكثر جرأة إذ حملت صراحة على الوزن الشعري ودعت إلى استبعاده نهائيًا عن الشعر ، ولا أدل على ذلك من قول حسين مردان عن الوزن أنَّه " **حبل قصير لا يصل إلى القعر، لذلك لا بدَّ من الاستغناء عنه والسقوط إلى الأعماق لنفرك التراب اللزج في القاع فتشع المعادن الكامنة فيه**."